عبء الرجل الأبيض الدائم

جذور إخفاق عالمية القيم الغربية في الشرق الأوسط

هالة الحفناوي

رئيس وحدة التحولات المجتمعية، المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، أبوظبي

بعد اندلاع الحرب الإسرائيلية على غزة، امتلأ العالم في الشرق والغرب بالتصريحات الرسمية والتحليلات السياسية المنددة والمؤيدة لما يجري في غزة، ولكن على مستوى الخطاب السياسي الغربي تجاه الأحداث في غزة، لم تكن هناك مقارنة بين الخطابات الإنسانية الصاخبة التي استخدمها قادة الدول الغربية لدعم الشعب الأوكراني جراء الهجوم الروسي، وبين خطاباتهم التي خلت من أي أبعاد إنسانية تجاه سكان غزة. بل إن الخطاب في كثير من الأحيان كان يُحمِّلهم مسؤولية ما صار إليه الوضع، ويمنح مئات التبريرات للجانب الإسرائيلي للمضي قدماً دون قيود أو شروط في تلك الممارسات اللاإنسانية.

لـم تكـن مفارقـة خطابـات القـوى الغربيـة ومواقفهـا تجـاه أحداثـه وشـعوبه مقارنـة بالأحـداث المماثلـة التـي تقـع لشـعوب مناطـق الشرق، بالأمـر الجديـد، بـل إن مـا وصفـه كثيرون بالنفـاق الغربـي أو ازدواجيـة المعـايير أو الاسـتعلاء الأوروبـي، وغيرهـا مـن الأوصـاف تكـرر في مواقـف كـثيرة، غير أن وقـوع أحـداث غـزة (في الشرق) تزامنـاً مـع أحـداث أوكرانيـا (في الغـرب) سـلط الضـوء على مـدى فجاجـة تلـك المفارقـة وعمقهـا، وهـو الأمـر الـذي يعيـد النقـاش مـرة أخـرى إلى جدليـة العلاقـة بين الشرق والغـرب، وذلـك لتفسـير أسـباب إخفـاق الخطـاب اللـيبرالي الغربـي في مـد مظلـة "القيـم الإنسـانية" التـي يقـوم عليهـا إلى الشـعوب الأخـرى.

الاستثناء الأوروبي

يقـوم البنـاء الثقـافي الغربـي على فكـرة "المركزيـة الأوروبيـة" (Eurocentrism)، والتـي تعـرف بكونهـا نظامـاً مفاهيميـاً أو مجموعـة مـن المعتقـدات التـي تصـور أوروبـا؛ باعتبارهـا المركـز الأسـاسي لتاريـخ العالـم ونمـوذج التقـدم والتنميـة الأسـمى، وأنهـا حاملـة الإطـار القيمـي الـذي يجـب أن يسـود في العالـم لإخراجـه مـن العتمـة إلى النـور أو مـن التخلـف والجهـل إلى الرقـي والتقـدم. فوفقـاً لإطـار المركزيـة الأوروبيـة؛ تمكنـت أوروبـا مـن تحقيـق إنجازاتهـا الاقتصاديـة والتكنولوجيـة والسياسـية بفضـل نوعيـة الحيـاة الفريـدة التـي تتمتـع بهـا مجتمعاتهـا.

وتُعـد المركزيـة الأوروبيـة بالأسـاس سرديـة أو خطابـاً متراكمـاً عبر العصـور، وأصـيلاً في العقليـة الأوروبيـة، وضميرهـا الجمعـي الـذي يركـز على المصالـح والثقافـة والقيـم الأوروبيـة على حسـاب الثقافـات الأخـرى. فهـو يسـتخدم أوروبـا باعتبارهـا "ثقافـة" أكثـر منهـا منطقـة، ويـفترض خطابـه أن أوروبـا هـي الحضـارة الأساسـية عبر التاريـخ، وهـو الأمـر الـذي يمنـح أوروبـا اسـتثنائية تاريخيـة تؤهلهـا للتفـوق الدائـم على الثقافـات الأخـرى. فتقـوم المركزيـة الأوروبيـة على الاسـتثناء الأوروبـي، وعلى وجـود ثقافـة اسـتثنائية ملتزمـة بالعقلانيـة والتقـدم والعالميـة. حتـى إن "الحداثـة" هـي ظاهـرة أوروبيـة حصريـة صدرتهـا أوروبـا للعالـم.

وقـد يظـن البعـض أن فكـرة المركزيـة الأوروبيـة مرتبطـة بالأسـاس بالـفترة الإمبرياليـة أو الاحـتلال الأوروبـي لكـثير مـن المناطـق بالعالـم، وأنـه بانتهـاء الاسـتعمار تراجـع هـذا المفهـوم وتطبيقاتـه. غير أنـه في واقـع الأمـر، تصاعـد مفهـوم المركزيـة الأوروبيـة في فترة الحـرب البـاردة بعـد الحـربين العالميـتين، الأولى والثانيـة، وفي الثمانينيـات والتسـعينيات تبلـور المفهـوم في فكـر فرانسـيس فوكويامـا، حـول نهايـة التاريـخ والإنسـان الأخير، والـذي توقـع سـيادة القيـم الغربية في العالـم باعتبـار أن النمـوذج الغربـي هـو النمـوذج النهائـي للتطـور الإنسـاني، وأن كافـة المجتمعـات والشـعوب سـوف تطبـق هـذا النمـوذج في نهايـة المطـاف في رحلتهـا مـن الظلمـة إلى النـور.

ووفقـاً لأدبيـات المركزيـة الأوروبيـة؛ يظهـر المفهـوم في بنـائين أساسـيين؛ الزمـان والمـكان، ويقصـد بالزمـان أن التوقيـت الـذي يسـتخدمه العالـم قائـم على المرصـد الموجـود في لنـدن، المعـروف باسـم توقيـت غرينتـش، وهـو مقيـاس زمني يعتمـد على دوران الأرض حـول نفسـها في يـوم واحـد بالاعتمـاد على خـط الطـول الـذي يمـر في بلدة غرينتش في بريطانيا، والـذي اعتمـد كنقطـة مرجعيـة للتوقيـت. وكذلـك التاريـخ، فالتاريـخ الأكثـر شـهرة هـو التاريـخ المـيلادي أو

مـا بعـد المـيلاد، كمـا أن تقسـيم التاريـخ الـبشري الأكثـر شـهرة قائـم أيضـاً على التقسـيم الـذي وضعتـه أوروبـا، الـعصر القديـم والعصـور الوسـطى وعصر التنويـر.

أمـا عـن بنـاء المـكان، فخرائـط العالـم أيضـاً موضوعـه وفقـاً للمركزيـة الأوروبية، فالتقسـيم الثنائـي للعالـم شـمالاً وجنوبـاً، شرقـاً وغربـاً هـو تقسـيم أوروبـي بامتيـاز؛ إذ وضعـت نفسـها في الشـمال مـن العالـم، وأصبـح الشرق منقسـماً إلى الشرق الأدنـى والشرق الأقصى بنـاءً على مسـافة دولـه مـن أوروبـا وبالأخـص بريطانيـا؛ الأمـر الـذي وصفـه المفكـر إدوارد سـعيد في كتابـه "الاسـتشراق" بالجغرافيـا المتخيلـة.

وقـد رسـم العلمـاء الأوروبيـون خرائـط العالـم بالآلية التـي تعكـس المركزيـة الغربيـة وثقلها العالمـي المتصـور، فوفقـاً لنظـام الخرائـط الـذي وضعـه، جيراردوس مركاتـو، والـذي ترسـم بـه الخرائـط إلى الآن، توضـع أوروبـا في المنتصـف مـن العالـم، ليـس هـذا فحسـب، بـل إن المسـاحات التقديريـة للـدول والقـارات على الخريطـة لا تعكـس الأحجـام الحقيقيـة ونسـبتها إلى بعضهـا على أرض الواقـع، فالخريطـة تعطـي انطباعـاً خاطئـاً عـن حجـم أوروبـا وأمريـكا الشـمالية ونسـبتهما مـن مسـاحة العالـم؛ حيـث تـكبر أحجامهمـا بصـورة كـبيرة مقارنـة بالواقـع.

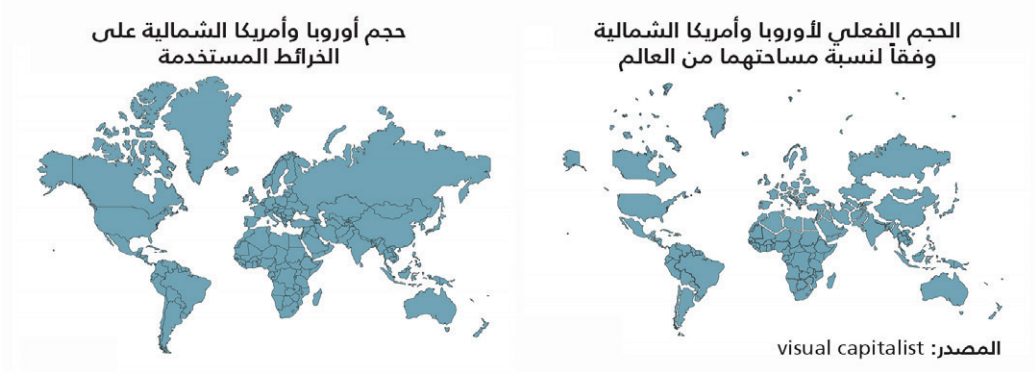

واحـدة مـن الأسـاطير التـي تقـوم عليهـا المركزيـة الأوروبيـة فكـرة "عالميتهـا" (Universalism)، بمعنـى أن الثقافـة الأوروبيـة الاسـتثنائية لديهـا الإطـار الـذي يمكـن تعميمـه في أي مـكان أو زمـان، ولا تـرى الثقافـات الأخـرى مـن الأسـاس غير بنظـرة ثنائيـة، فمفهـوم الحضـارة قائـم على ثنائيـة "الأوروبيـة" و"الهمجيـة"؛ إذ تقلـل السرديـة الغربيـة مـن أهميـة تاريـخ الثقافـات الأخـرى، وتهمـش مسـاهماتها في التاريـخ الـبشري وفي الحضـارة الأوروبيـة ذاتهـا، مـن خلال إعطـاء مسـاحة صـغيرة جـداً لتغطيـة إنجازاتهـا فالفرضيـة الأساسـية للاسـتثنائية الأوروبيـة تتلخـص في دونيـة الثقافـات الأخـرى.

وفي هـذ الإطـار، تتجنـب عقيـدة المركزيـة الأوروبيـة الإشـارة لأي تناقضـات مـع القيـم الغربيـة ذاتهـا، مثـل: تناقضهـا مـع فكـرة الليبراليـة أو الديمقراطيـة، أو حقـوق الإنسـان. فالحديـث عـن القيـم الأوروبيـة باعتبارهـا قيمـاً نبيلـة يبرر أي جوانـب سـوداء للتاريـخ الأوروبي والغربـي بصفـة عامـة، فالإنسـانية في الفكـر الغربـي تضـع الفـرد الغربـي أولاً، ولـو كان ذلـك على حسـاب انعـدام إنسـانية الآخريـن الذيـن هـم في الأسـاس في مرتبـة أقـل، والتـحضر لا يعنـي

سوى تقمص النموذج الغربي وأي محاولات خارجة عن هذا النموذج لا تخرج عن إطار البربرية. وليس هذا فحسب، بل إن على الغرب مسؤولية أخلاقية تستدعي التدخل في شؤون الآخرين لإخراجهم من الظلام إلى النور وتعليمهم وتلقينهم النموذج الغربي الذي يستدعي محو كل ما هو شرقي.

الشرق المتخيل

في مذكراته، كتب أحمد زويل، أنه عندما وصل إلى مسكنه الجامعي بالولايات المتحدة الأمريكية في أواخر الستينيات، صاحبته مسؤولة إدارية لتفقد السكن، وكان من اللافت أنها أوقفته أمام الثلاجة، وشرعت في شرح مفهوم الثلاجة ووظائفها وكيفية استخدامها ومتى تم تصنيعها، ولم يفهم زويل حينها لماذا تفرد هذه السيدة كل هذه التفاصيل عن ثلاجة، حتى اكتشف أنها تظن أن هذا الاختراع الحداثي لم يصل إلى بلاد الشرق التي ما زالت تعيش على الحياة البدائية، وعندما صدم زويل السيدة بأنه يعلم بأمر الثلاجة اندهشت بصورة كبيرة، ولكنها لم تتخل عن الصور الذهنية الراسخة في وجدانها، إذ أرجعت معرفة زويل بالثلاجة لكونه شخصاً "مثقف"، بينما حاول زويل إقناعها بوجود هذا الجهاز في غالبية البيوت المصرية منذ اللحظة الذي ظهر فيها.

في عبارته الشهيرة، قال كارل ماركس: "لا يستطيعون تمثيل أنفسهم ولا بد أن يمثلهم أحد" وعلى نفس النهج، كان يتعامل الغرب مع الشرق بأنه غير قادر على فهم أو تمثيل ذاته، وكانت مهمة استكشاف الشرقيين محل اهتمام أوروبا خلال عصور الاستعمار، الأمر الذي عرف لاحقاً بالاستشراق، ومن بعد تولي الولايات المتحدة مقاليد الهيمنة أرسلت بعلمائها هي الأخرى لاستكمال المهمة.

بغض النظر عن مدى اتساق ما توصلت له أدبيات الاستشراق من معرفة عن سكان المنطقة، إلا أنها استمرت المكون الرئيسي للتصورات والتوقعات التي يتبناها الغربيون عن الشرقيين. يقول إدوارد سعيد، إن ما دفعه لدراسة الاستشراق؛ تلك الفجوة الكبيرة التي شعر بها بين أدبيات المستشرقين والشرق الذي يعرفه بحكم تجربته الأصيلة كفرد ذو أصول شرقية، وفي إحدى لقاءاته، وصف سعيد، الصدمة التي انتابت المجتمع الأمريكي بعد حرب أكتوبر 1973 بعد انتصار مصر على إسرائيل، ولم يكن ذلك مرتبطاً بالأوساط اليهودية حزناً على هزيمة إسرائيل، بل إن المجتمع ذاته لم يكن يتوقع أن دولة في الشرق، المتخيل لديهم، يمكنها الانتصار أو تحقيق أي إنجاز يذكر على غرار الغرب[1]. وإذ إن إسرائيل وفقاً للتقسيم الجغرافي الغربي تقع في الشرق ولكنها تعبر عن النموذج الغربي الذي غرست بذرته أوروبا، وأكملت الولايات المتحدة رعايته، فهي صناعة غربية في أرض شرقية، لا تنطبق عليها الرؤية الاستشراقية. فقد أسهمت الصور النمطية المستمدة من الاستشراق في بناء نظام هيمنة للسيطرة على الشرق وتعزيز الإمبريالية الغربية عليه.

يعرف إدوارد سعيد "الاستشراق" بكونه التفاهم مع الشرق بأسلوب قائم على المكانة الخاصة، التي يشغلها الشرق في الخبرة الأوروبية الغربية، أي إدراك الشرق استناداً على الصورة التي بناها الغرب عنه فالاستشراق يتجسد في كونه أسلوباً للخطاب، تمكنت من خلاله

الثقافة الأوروبية من إنتاج الشرق، بل وابتداعه كما أشار سعيد، والذي وصف الاستشراق بكونه مؤسسة جماعية للتعامل مع الشرق، والتعامل معه يعني دراسته واحتكار وصفه والتحدث عنه وتسوية أوضاعه وإعادة بنائه والهيمنة عليه[2].

وعلى الرغم من جدال البعض بتراجع الاستشراق أو حتى نهايته، فإن تأثيره ما زال قائماً في العقلية الغربية، وتتم إعادة إنتاجه في الخطاب الغربي والصور النمطية التي لا زلنا نراها حتى الآن حتى في أحدث أفلام هوليوود، حتى إن الصور الأقرب إلى الفانتازيا ما زالت راسخة في العقلية الغربية عن الشرق؛ فالرمزية التي تركها الاستشراق في العقل الغربي عن الشرق ما زالت مؤثرة، ولم تتمكن صور الحداثة والنماذج التي يصدرها الشرق من محوها، بل يتم التعامل معها على أنها استثناءات لا تعبر عن عموم الشرق. وقد منحت تلك الصور النمطية التي تتم إعادة صياغتها بأشكال مختلفة كافة المبررات للغرب للتدخل بأية صورة ما من أجل حماية وإنقاذ سكان تلك المناطق غير القادرين على حماية أنفسهم.

عبء الرجل الأبيض

غالباً ما يشير الخطاب الأمريكي إلى ثنائية الديمقراطية والسلطوية على أنها أحد أسباب الصراعات حول العالم، ورغم أن هذا الخطاب قد فقد مصداقيته بصورة كبيرة، إلا أن العقيدة السياسية الخارجية الأمريكية ما زالت تؤكد أن دورها العالمي يتضمن مواجهة الأنظمة السلطوية ودعم الديمقراطيات حول العالم وتدشين تحالفات من الدول الصديقة

التي تشاركها منظورها العالمي؛ الأمر الذي يعطي للولايات المتحدة والكتلة الغربية الحق في التدخل في شؤون دول الشرق (غير الديمقراطي) لتحويلها لنظم ديمقراطية تقوم على القيم الغربية النبيلة، بما يسير بالعالم في نهاية المطاف نحو الاستقرار والتقدم.

ولا تختلف تلك العقيدة عما يعرف بـ "عبء الرجل الأبيض"، وهي المقولة التي ظهرت في القرن العشرين، والتي انتشرت إثر قصيدة كتبها الشاعر البريطاني روديارد كيبلينغ، أحد دعاة الاستعمار الغربي في أواخر القرن التاسع عشر، بذات العنوان؛ حيث كتب يحث الجمهور (الذي يُفترض أنه أشخاص "بيض") على أداء مهمة صعبة موكلة إليه بحكم جنسه الأبيض. تتطلب هذه المهمة من أفضل الأشخاص في المجتمع الأبيض أن يذهبوا إلى أرض أخرى، يخدمون شعباً أجنبياً قاموا بغزوه بأنفسهم؛ شعب غير موثوق به، شبه متوحش[3]. فمن غيرهم يتحمل نشر مكاسب الثورة الصناعية والحضارة الغربية؟ وحمل مشعل التنوير لهؤلاء المتجهمين، الذين وصفهم بأن نصفهم يتصرفون كشياطين والنصف الآخر بعقول أطفال؟.

ومن المعروف أن الجدال الذي ساد عقب ظهور مفهوم "عبء الرجل الأبيض" قد أدى دوراً رئيسياً في مناقشات الكونغرس حول ما إذا كان ينبغي على أمريكا ضم جزر الفلبين بعد الحرب الأمريكية الإسبانية، وقد دخلت الولايات المتحدة وقتلت آلاف الفلبينيين في الفترة من 1901 إلى 1902[4].

في مقابلة شهيرة لوزيرة الخارجية الأمريكية السابقة، مادلين أولبرايت، تم سؤالها عما إذا كانت التكلفة الإنسانية للعقوبات التي فرضتها الولايات المتحدة على العراق في أواخر التسعينيات، إذ تم قطع الأغذية والأدوية عن الأطفال، ما تسبب في مقتل نصف مليون طفل عراقي، ثمناً مبرراً للسياسة الأمريكية. ردت أولبرايت بأنه كان خياراً صعباً ولكن يستحق[5].

قد يظن البعض أن سردية تفوق الرجل الأبيض اختفت بعد كل هذا الزخم والثورات وقوانين حقوق الإنسان والمساواة والعدالة، إلا أنه حتى داخل المجتمع الأمريكي ذاته وبين مواطنيه الذين يتمتعون بنفس الجنسية ما زال الرجل الأبيض له الأفضلية، فوفقاً لجين سبيرلينغ، المدير السابق للمجلس الاقتصادي الأمريكي، في كتابه الصادر بعنوان "الكرامة الاقتصادية"؛ في مقابل كل 100 دولار يتقاضاها عامل أمريكي أبيض، تحصل العاملة الأمريكية السوداء على 61 دولاراً، والإسبانية على 54 دولاراً، وعلى مدار عمر العمل بين الأدنى والأعلى أجراً تتراكم الفروق في الدخل والتفاوت في الفرص[6]؛ وإذا كان الوضع كذلك في النظرة لذات المواطنين فما بالك بالنظرة إلى الآخر من خارج العالم الغربي.

احتكار صناعة السردية

إلى الآن تحتفل كثير من الدول الأوروبية، إلى جانب أمريكا الشمالية بالطبع، "بيوم كولومبوس" تكريماً لرحلة كريستوفر كولومبوس إلى الأمريكيتين. وتصف الرحلة وكأنه تم اكتشاف أرض فارغة لم تكن مملوكة لشعب، ويتجاهل السرد الكارثة الإنسانية والثقافية التي أعقبت الاكتشاف. وبنفس المنطق، تقلل السردية الغربية من كوارث إنسانية مماثلة

على مـر التاريـخ مثـل: تجـارة الرقيـق، والعنصريـة، واسـتخدام الـسلاح النـووي في نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة، وقتـل ربـع مليـون مواطـن يابانـي أعـزل.

مـا يلفـت الانتبـاه إلى الممارسـات الغربيـة ليسـت بشـاعتها الإنسـانية فحسـب، بـل السرديـة المصاحبـة لتلـك الممارسـات؛ فبعـد إطلاق القنابـل النوويـة على المدينـتين اليابانيـتين، خـرج الرئيـس الأمريكـي، هـاري ترومـان، في خطـاب تاريخـي مشـيداً بالكارثـة الإنسـانية قـائلاً: "إن القنابـل لـم تنـه الحـرب فحسـب، بـل فعلـت ذلـك بأكثـر الطـرق إنسـانية أيضـاً"[7].

مـن أهـم المرتكـزات التـي طورتهـا النظريـة البنائيـة (Constructivism) في العلاقـات الدوليـة هـو مفهـوم السرديـة ودور "اللغـة" في تصويـر الواقـع، فالخطابـات السياسـية تربـط الأفعـال والقـرارات بسرديـات تجعلهـا منطقيـة ومقبولـة لـدى الجمـاهير. تقـوم البنائيـة على فكـرة أن جميـع الحقائـق مـن حولنـا هـي في واقـع الأمـر "مبنيـة" اجتماعيـاً. الـبشر هـم مـن يشـكلون العالـم ويعطـون لـه معانـي محـددة، وتـشير البنائيـة إلى أن اللغـة تشـكل العالـم، وكذلـك العلاقـات، فاللغـة تضـع القواعـد والسياسـيات، وتـعبر عـن الأهـداف والنيـات، وتقـدم تصـورات مختلفـة عـن مشـكلة أو قضيـة أو وقائـع، وتحـدد التهديـدات الأمنيـة[8].

في هـذا الإطـار، لـم يتردد العالـم الغربـي في تشـييد أدوات صناعـة السرديـة واحتكارهـا، ففـي النظـم الغربيـة (الليبراليـة) لا تقـل المؤسسـات الإعلاميـة والثقافيـة والفنيـة أهميـة عـن المؤسسـات الأمنيـة، بـل إن كـثيراً مـن تلـك المؤسسـات هـي صناعـة المؤسسـات الأمنيـة بالأسـاس وأداة مـن أدواتهـا. فلا يخفـى على أحـد أن سـينما هوليـوود، التـي مـن المـفترض أن تحكمهـا معـايير الفـن والإبـداع، هـي مـن أهـم أدوات السياسـة الخارجيـة الأمريكيـة، وتـم توظيفهـا في لحظـات تاريخيـة فارقـة، وكانـت الـسلاح الأمريكـي الأهـم في حربهـا على الفكـر الشـيوعي. ولذلـك، لا يتهـاون الغـرب في مـد مؤسسـاته الإعلاميـة بأنماطهـا المختلفـة بكافـة الإمكانـات اللازمـة للحفـاظ على هيمنتـه وسـيطرته على "السرديـة" في كافـة أنحـاء العالـم.

لعـل الحـرب الأمريكيـة على العـراق تظهـر مـدى مركزيـة السرديـة في الفكـر الغربـي وتأثيرهـا؛ إذ تمكـن الغـرب مـن بنـاء سرديـة امـتلاك العـراق لأسـلحة خطـرة تهـدد الإنسـانية. وقـد وصـف الرئيـس الأمريكـي جـورج دبليـو بـوش، العـراق بأنـه جـزء ممـا يسـمى "محـور الشر"، إلى جانـب إيـران وكوريـا الشـمالية، وادّعـى أن العـراق كان يعمـل على تطويـر أسـلحة الدمـار الشـامل ودعـم الإرهـاب تحـت قيـادة صـدام حـسين[9]. فالمتابـع للخطـاب الغربـي، يجـد أنـه بـارع في صناعـة المصطلحـات والمسـميات التـي تؤطـر وتلخـص للذهـن رؤيتـه للآخـر، وتتأسـس الدعايـة الغربيـة على هـذه الرمزيـة المؤثـرة بصـورة كـبيرة وترتكـز عليهـا في خلـق التصـورات بشـأن الأحـداث الجاريـة والشـعوب الأخـرى والممارسـات الغربيـة.

وعلى الرغـم مـن أن عمليـات التفتيـش التـي قامـت بهـا الأمـم المتحـدة لمواقـع الأسـلحة المشـتبه بهـا لـم تعثـر على أي دليـل، ولـم تتمكـن الولايـات المتحـدة بدورهـا (حتـى بعـد دخولها العـراق) مـن تصويـر أو تسـجيل أو إظهـار أي أدلـة على تلـك الأسـلحة المزعومـة، فـإن التحالـف الغربـي بقيـادة الولايـات المتحـدة قـام بغـزو العـراق، وتـم إعـدام صـدام حـسين في وقـت لاحـق بمباركـة مـن شـعوب الغـرب التـي صـور لهـا الأمـر وكأن الولايـات المتحـدة أنقـذت الكوكـب مـن الانفجـار العظيـم على غـرار الأفلام التـي تنتجهـا هوليـوود.

إرث الاستعمار الغربي كما يتبدى في حرب التحرير الجزائرية

ولذلك يشعر الغرب بالتهديد الشديد من صعود مصادر أخرى للسردية، ففي بداية الحرب الأوكرانية، حظرت كثير من الدول الغربية، التي تنادي بحريات التعبير والصحافة، منصات "روسيا اليوم"، عندما شعرت بتأثيرها في الرأي العام الدولي والداخلي، ويواجه الغرب الآن تحدياً مع منصة "تيك توك" الصينية خاصة بعد انتشارها وتقديمها لسردية مختلفة عن الحرب في غزة، عن تلك التي يقدمها الغرب، ونجح في تسويقها في العالم لعقود طويلة.

إذ تعتبر الأجيال الأكبر سناً في الغرب أن أطفالها وشبابها يتعرضون لنوع من غسيل الدماغ (brain wash) بسبب منصات التواصل الاجتماعي خاصة منصة "تيك توك"، وفي ذات الإطار، طالبت نيكي هايلي، المرشحة الرئاسية عن الحزب الجمهوري، بالولايات المتحدة الأمريكية، بحظر منصة "تيك توك" تماماً، وقد صرحت بذلك بصورة حاسمة في مناظرة انتخابية أولية؛ إذ قالت، إنه "مقابل كل 30 دقيقة يشاهدها شخص ما على منصة تيك توك، يصبح أكثر معاداة للسامية بنسبة 17%، وأكثر تأييداً لحماس في المقابل". وفي وقت سابق، وصف أحد أعضاء الحزب الجمهوري في الكونغرس "تيك توك" بأنه "فنتانيل رقمي"، يغسل أدمغة الشباب الأمريكيين ضد بلادهم وحلفائها[10].

إن الحرب الجارية على غزة بالنسبة للغرب تتعدى كونها أزمة إنسانية، فهي أزمة كاشفة، أوضحت للغرب أن ثمة سرديات أخرى وفواعل آخرين يتحدون هيمنة السردية الأوروبية ومظلتها القيمية المزعومة التي حاولت من خلالها شرعنة ممارساتها، ولذلك على عكس التوقعات، نجد المواقف الغربية أكثر شراسة وتشنجاً في دعمها لإسرائيل، خوفاً من فقدانها لزمام الأمور، ليس فقط بمنطقة الشرق الأوسط ولكن عبر كل الشرق وداخل الغرب أيضاً، فإسرائيل تمثل الرمزية الغربية في الشرق.

لم تؤثر التغيرات الماضية كثيراً في المقولات والركائز التاريخية التي شكلت الوجدان الغربي وهويته وأسست له الإطار الذي يرى به نفسه والآخر، خاصة على مستوى السياسات والقائمين على الحكم. غير أن التفاعلات التي نشهدها اليوم من الأجيال الصغيرة، "زد" و"ألفا"، تجاه المشهد العالمي توحي بأن هناك اهتزازاً لذلك الإطار بفعل ظهور فاعلين جدد في صناعة السردية، فهل تتمكن تلك المتغيرات الجديدة من التأثير في الضمير الغربي تجاه ما يحدث في الشرق؟ أم سيتمكن المناصرون للاستثنائية الغربية من إعادة إنتاجها مرة أخرى؟ ما زالت النتائج غير مضمونة، وما زال السؤال مطروحاً: هل يتغير الغرب من الأسفل؟

المصادر:

1- Edward Said: The Last Interview, **youtube,** 2003, available on, https://www.youtube.com/watch?v=CxW0u-JBWVIY

2- Patricia Almarcegui, Orientalism and Post-Orientalism. Ten Years without Edward Said, **IEMED**, https://www.iemed.org/publication/orientalism-and-post-orientalism-ten-years-without-edward-said/

3- The White Man's Burden Summary & Analysis, **lit charts**, https://www.litcharts.com/poetry/rudyard-kipling/the-white-man-s-burden.

4- Harris, Susan K., '"The White Man's Burden," the Philippines, and the Anglo-American Alliance', God's Arbiters: Americans and the Philippines, 1898-1902, **Imagining the Americas**, New York, 2011.

5- https://twitter.com/The_Cyrenian/status/1504830256401723392

6- محمود محيي الدين، عن عبء الرجل الأبيض والعنصرية وتوطين التنمية، **الشرق الأوسط**، 14 يوليو 2020، https://tinyurl.com/2sta3dfn

7- مؤرخان أميركيان: هكذا عرف قادة أميركا أنه لا حاجة للقصف النووي لهزيمة اليابان، **الجزيرة**، 9/8/2021، https://tinyurl.com/jen-r35a8

8- Alan colins, **Contemporary Security Studies**, fourth edition, Oxford, page 82.

9- Sabrina Sohail, Understanding Narratives in International Relations, **the diplomate insight**, October 2022, https://thediplomaticinsight.com/understanding-narratives-in-international-relations/

10- Nesrine Malik, Is TikTok brainwashing the kids about Gaza? No, this is just an old moral panic in a new form, **The Guardian**, https://tinyurl.com/56cbujfm